الفصل الثالث عشر

علوم الدين

فى القرن الرابع الهجرى مرّ علم الكلام الإسلامى أو علم العقائد فى أهم أدوار حياته ، وهو دور تحرّره من الفقه ، بعد أن ظل حتى ذلك الحين خادما له[1] ؛ وكانت جميع كتب الكلام المعتبرة عند جمهور الأمة الإسلامية تتناول بعض الموضوعات الفقهية . ومرجع الفضل فى حدوث هذا التغير إلى المعتزلة الذين كانوا طول القرن الثالث الهجرى يعالجون مسائل كلامية محضة ، وهم فى القرن الرابع يضطرون خصومهم إلى الإجابة عن هذه المسائل . وكانوا أول فرقة إسلامية تحررت من نزعات الفقهاء كلها ، فكانوا هم الفرقة « الكلامية » الوحيدة[2] التى تعالج الكلام وحده بين الفرق الخمس الكبرى التى كان المسلمون منقسمين إليها فى ذلك العهد ، وهى أهل السنّة والمعتزلة والمرجئة والشيعة والخوارج[3] . وقالوا إن كل مجتهد مصيب فى الفروع[4] . وكان منهم رجال فى جميع المذاهب الفقهية حتى بين أصحاب الحديث الذين يُعتبرون عادة ألدّ أعداء المتكلمين[5] .

ومن جهة أخرى كان الصوفية خصوما ألدّ لجميع الفقهاء ، ولم يقنعوا قط

---

(١) هذا الحكم يحتاج إلى تقييد ؛ فإن علم الكلام استقل علما بذاته فى القرن الثالث . وفى هذا القرن أيضاً تكونت مبادئ علم الكلام السنّى (المترجم) .

(٢) المقدسى ص ٣٧ .

(٣) ابن حزم مثلا ج ٢ ص ١١١ .

(٤) المقدسى ص ٣٨ ؛ والمنزلة لابن المرتضى ص ٦٣ .

(٥) المقدسى ص ٤٢٩ .

من التشنيع عليهم ؛ وقد عبّروا عن احتقارهم لعلم الفقه الذى يسمونه علم الدنيا تعبيراً قاسيا ؛ ومن أمثلة ذلك ما يقوله المكى المتوفى عام ٣٨٦ هـ — ٩٩٦ م أخذاً عن السيد المسيح عليه السلام ؛ فهو يقول : « وروينا عن عيسى عليه السلام : مَثَلُ علماء السوء مَثَلُ صخرة وقعت على فم النهر ، لا هى تشرب الماء ، ولا تترك الماء يخلُصُ إلى الزرع ؛ وكذلك علماء الدنيا قعدوا على طريق الآخرة ، فلا هم نفذوا ، ولا تركوا العباد يسلكون إلى الله عز وجل ؛ قال : ومثل علماء السوء كمثل قناة الحش ، ظاهرها حسن وباطنها نتن ؛ ومثل القبور المشيدة ظاهرها عامر وباطنها عظام الموتى »[1] .

وقد انتصر الصوفية فى هذا الباب ؛ ففى القرن التالى جاء الغزالى إمام جمهور المسلمين المتأخرين ، فجاهر بأن علم الفقه علم دنيوى لا دينى[2] . ونجد بين الصوفية طوائف كثيرة ترفض العلوم جملة ، حتى إنه يُحكى عن أبى عبد الله بن خفيف المتوفى عام ٣٧١ هـ — ٩٨١ م أنه كان يوصى الناس بأن يشتغلوا بالعلم ولا يغتروا بكلام الصوفية ، ويقول إنه كان يخبئ المحبرة والورق فى ثيابه ويذهب إلى أهل العلم خفية ؛ فإذا علم به الصوفية خاصموه وقالوا : لا تفلح[3] . وقد فرّق الصوفية مرة أخرى بين المعرفة (أى علم الحقائق) وبين العلم (بمعنى العلوم المألوفة لدى الناس) . يقول الحلاّج المتوفى عام ٣٠٩ هـ — ٩٢٢ م مستهزئاً بالعلم : « يا عجباً لمن لا يعرف شعرة من بدنه كيف تنبت سوداء أم بيضاء ، كيف يعرف مكوّن الأشياء ! من لا يعرف المجمل والمفصّل ، ولا يعرف الآخر والأول والتصاريف

---

(١) قوت القلوب لأبى طالب المكى ج ١ ص ١٤١ طبعة مصر ١٣١٠ هـ .

(٢) Goldziher, Zahiriten, S. 182.

(٣) Amedroz, notes on some sufi lives, JRAS., 1912, S. 556

والعلل والحقائق والحيل لا تصح له معرفة من لم يزل » . ويحكى الحلاّج فى موضع آخر : « رأيت طيراً من طيور الصوفية عليه جناحان ، وأنكر شأنى حين بق على الطيران ، فسألنى عن السفاء ، فقلت له : اقطع جناحك بمقارض الفناء ، وإلا فلا تتبعنى ، فقال : بجناح أطير ، فقلت له : ويحك ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ، فوقع يومئذ فى بحر الفهم وغرق »[1] . ولكن نجد قوماً آخرين ، كالجنيد المتوفى عام ٢٩٨ هـ — ٩١٠ م ، يصرّحون بأن العلم أرفع من المعرفة وأتمّ وأشمل[2] . ونجد بين العلماء كالشافعية مثلاً كثيراً من الصوفية ، وهذه حقيقة واقعة ؛ وكانت علوم الصوفية الدينية أهم العلوم وأكثرها نجاحا ؛ فقد كانت هى الحركة العلمية التى ضمت أعظم القوى الدينية فى ذلك العهد ؛ والحركة الصوفية فى القرنين الثالث والرابع أوجدت فى الإسلام ثلاثة مبادئ أثرت فيه تأثيراً كبيراً وهى : ثقة وطيدة كاملة بالله تعالى ، والاعتقاد بالأولياء ، وإجلال النبى محمد عليه السلام ؛ ولا تزال هذه المبادئ الثلاثة أهم العوامل وأقواها تأثيراً فى الحياة الإسلامية[3] .

وقد زاد الإقبال على دراسة القرآن والحديث ، لأن ذلك واجب من أول الواجبات المفروضة على كل مسلم ومسلمة[4] . ولكن نشأ فى القرن الرابع رسم جديد ، وهو الذى يجيز للإنسان رواية الحديث من غير لقاء رجاله ، ومن غير

---

(١) كتاب الطواسين للحلاج طبعة باريس ١٩١٣ ص ٢٣ ، ٣٠ .

(٢) نفس المصدر ص ١٩٥ . على أن النصين الأولين لا يحويان بصراحة تقابلا وتعارضاً بين المعرفة والعلم ، بل فيهما معنى غير هذا ، ولا أرى تعارضاً بينهما وبين ما يحكى عن الجنيد . (المترجم) .

(٣) انظر الفصل الخاص بالدين .

(٤) بستان العارفين للسمرقندى على هامش تنبيه الغافلين ص ٣ .

إجازة مكتوبة تخوّله حق الرواية[١] ؛ وبهذا حلّت دراسة الكتب محل الأسفار التى كان يقوم بها طلاب الحديث من قبل لقاء رجاله . وقد استطاع ابن يونس الصدفى المتوفى عام ٣٤٧ هـ — ٩٥٨ م أن يكون إماماً متيقظا حافظا فى الحديث ، وإن كان لم يرحل ، ولا سمع بغير مصر[٢] . وكان مَثَلُ العالم الذى يطلب الحديث مثلَ التاجر أو عامل السلطان فى كثرة غشيانه للخانات التى يأوى إليها المسافرون أو فى طوافه فى السكك ؛ وهكذا بقى شأنه فى الحركة والتجوال زماناً طويلا . وفى سنة ٣٩٥ هـ — ١٠٠٥ م توفى ابن مندة « خاتمة الرحّالين » الذين رحلوا لسماع الحديث ؛ وقد جمع ألفاً وسبعمائة حديث ، ورجع إلى وطنه ومعه أربعون وِقْراً من الكتب[٣] . ويقول أبو حاتم السمرقندى (المتوفى عام ٣٥٤ هـ — ٩٦٥ م) : لعلنا كتبنا عن ألف شيخ مابين الشاش والإسكندرية[٤] ويُروى عن أبى يعقوب القراب السرخسى (المتوفى عام ٤٢٩ هـ — ١٠٣٧ م) أنه طلب الحديث فأكثر ، حتى زاد عدد شيوخه على ألف ومائتى شيخ[٥] . على أن الغزالى على شهرته ومع أنه صار أكبر حجة للعلم عند أهل القرون التى جاءت بعده ، لم يسافر فى طلب العلم إلا قليلا : فقد خرج من بلده طوس ، وسمع بجرجان فى الشمال ، ودرس فى نيسابور ، وكانت أكبر مدينة علمية فى بلاده ؛ وهذا كل ما عُرف من أسفاره لطلب العلم . وقد بيّن صاحب كتاب بستان

---

(١) Goldziher, Muh. Studien, II, 190 ff. ، وقد ذكر النووى أن من العلماء من أجاز صحة رواية الحديث كتابة ، وذلك منذ القرن الثانى الهجرى ؛ ونجد أمثلة كثيرة لمثل هذه الرواية فى المجموعات الفقهية الحنفية .

(٢) حسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ١٦٤ .

(٣) الزرقانى ج ١ ص ٢٣٠ ؛ Goldziher, Muh Studien, II, 180

(٤) السبكى ج ٢ ص ١٤١ .

(٥) نفس المصدر ج ٣ ص ١١٤

العارفين[١] فى القرن الرابع اختلاف الآراء فى هذا الباب أوضح بيان . ومن أمثلة النقد الذى وُجِّه المحدثين أن النوبختى يصف أبا الفرج الأصفهانى صاحب كتاب الأغانى (المتوفى عام ٣٥٦ هـ — ٩٦٧ م) ، وهو الذى سمع منه الدارقطنى المحدِّث المشهور ، بأنه « أكذب الناس ؛ لأنه كان يدخل سوق الورّاقين ، وهى عامرة ، والدكاكين مملوءة بالكتب ، فيشترى شيئا كثيراً من الصحف ، ويحملها إلى بيته ، ثم تكون رواياته كلها منها »[٢] .

على أن المحدثين كانوا يُعتبرون أكبر العلماء شأناً ؛ وكان يُمدون من أعظم رجال الإسلام ، ولا يفوت المؤرخين ذكرُ وفاتهم إلى جانب القليلين الذين يختارون ذكرهم ؛ وهم يقصون الحكايات العجيبة التى تدل على مقدرتهم فى الحفظ . فيُحكى أن عبد الله بن سليمان بن الأشعث (المتوفى عام ٣١٦ هـ — ٩٢٨ م) كان محدِّث العراق ، وكان يحدّث فى دار الوزير على بن عيسى ، وقد نصب له السلطان منبراً حدّث عليه ؛ وقد خرج إلى سجستان فسأله أهلها أن يحدثهم فقال : ما معى أصل ، فقالوا : ابن أبى داود وأصول ! فأملى عليهم من حفظه ثلاثين ألف حديث ، فلما قدم بغداد ، قال البغداديون : مضى ابن أبى داود إلى سجستان ولعب بالناس ؛ ثم فيَّجُوا فيَّجًا بستة دنانير إلى سجستان ليكتب لهم النسخة فكُتِبت ، وجيء بها وعُرضت على الحفّاظ فخطأوه فى ستة أحاديث ، لم يكن أخطأ إلا فى ثلاثة منها[٣] . ويُحكى أن ابن عقدة (المتوفى عام ٣٣٢ هـ — ٩٤٣ م) كان يحفظ بالأسانيد والمتون خمسين ومائتى ألف حديث[٤] .

---

(١) بستان العارفين السمرقندى ص ١٨ وما يليها (ف) .

(٢) تاريخ بغداد طبعة كرنكو : JRAS, 1912, S. 71

(٣) المنتظم ص ١٣٦ ، السبكى ج ٢ ص ٢٢٩ — ٢٣٠ .

(٤) المنتظم ص ٧٢ ب .

وكان قاضى الموصل المتوفى عام ٣٥٥ هـ — ٩٦٦ م يحفظ مائتى ألف حديث عن ظهر قلب[١] وفى سنة ٤٠١ هـ — ١٠١٠ م مات بمصر الحافظ ميسر ؛ وكان عنده درج طويل طوله سبعة وثمانون ذراعاً مملوء الوجهين فيه أوائل ما يحفظه من الأحاديث[٢] . ويحكى العلماء مع الفخر ما جرى لأبى الفضل الهمذانى بنيسابور مع الحاكم النيسابورى ؛ ذلك أن أبا الفضل لما ورد نيسابور ، وتعصب الناس له ، ولُقِّب بديع الزمان أعجب بنفسه ، إذ كان يحفظ المائة بيت إذا أنشدت بين يديه مرة و ينشدها من آخرها إلى أولها مقلوبة ، فأنكر على الناس قولهم : فلان الحافظ فى الحديث ، ثم قال : وهل حفظ الحديث مما يُذكر ؟ فسمع به الحاكم النيسابورى فوجّه إليه بجزء وأجّله جمعة فى حفظه . فردّ الهمذانى إليه الجزء بعد جمعة ، وقال : من يحفظ هذا ! محمد بن فلان وجعفر بن فلان عن فلان ، أسام مختلفة ، وألفاظ متباينة ؛ فقال له الحاكم : فاعرف نفسك ؛ واعلم أن حفظ هذا أضيق مما أنت فيه[٣]

أما من حيث السرعة فى تعلّم الحديث فنستطيع معرفة ذلك مما حُكى عن الخطيب البغدادى أنه قرأ صحيح البخارى على كريمة بنت أحمد المروزى فى خمسة أيام[٤]

وأكبر محدّثى القرن الرابع هما أبو الحسن على الدارقطنى المتوفى عام ٣٨٥ هـ — ٩٩٥ م والحاكم النيسابورى المتوفى عام ٤٠٥ هـ — ١٠١٤ م . وقد خلفهما

---

(١) Goldziher, Muh. Studien, II, 200.

(٢) سكردان السلطان على هامش الخلاة ص ١٨٨ .

(٣) طبقات السبكى ج ٣ ص ٦٦ — ٦٧ .

(٤) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٢٤٧ ، وتسمى عند ابن بشكوال (ج ١ ص ١٢٣) كريمة المروزية .

فى القرن الخامس أبو بكر الخطيب البغدادى المتوفى عام ٤٦٣ هـ — ١٠٧١ م . وقد وجدوا من كتب الحديث التى جمعت فى القرن الثالث الهجرى موضوعاً لبحثهم بما كان فى هذه الكتب من تبويب وما كان فيها من تناقض . ولذلك قاموا بتأليف كتب جديدة فى الحديث ، فمثلاً ألّف الدارقطنى كتابا فى السنّة ؛ وقد استدعاه الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات من بغداد و برّه بمال كثير ، وأنفق عليه نفقة واسعة ، وخرّج له المسند ، وكان لهذا الوزير مجالسُ إملاء كتبها الدارقطنى وآخر معه وخرّجاها[1] ؛ أو هم قاموا بتأليف الاستدراكات أو المستدركات ، كما فعل الدارقطنى والحاكم ، لاعتقادهما أن كثيراً من الحديث الصحيح قد فات جامعيه الأولين ؛ أو بعمل المخرّجات أو المستخرجات ، وقد فعل ذلك كلُّ محدّث كبير فى القرن الرابع[2] .

وكذلك ظهرت فى القرن الرابع كتبٌ جديدة تعالج تصحيفات الحديث ، ومنها كتب الخطيب والدارقطنى[3] . وقد اعتنى نُقّاد الحديث منذ أول الأمر بمعرفة رجال الحديث وضبط أسمائهم والحكم عليهم بأنهم ثقات أو ضعفاء ؛ ثم نظروا فى الأساس الذى ينبنى عليه هذا الحكم ، أعنى الصفات التى يجب توفرها فى المحدّث الثقة ، وهو ماعرف بالجرح والتعديل . ويقال إن أول من ألف فى هذا الباب يحيى بن كثان المتوفى عام ١٩٨ هـ — ٩١٤ م[4] . وبعد أن اشتغل

---

(١) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٤٠٨ ؛ وقد كتب تلاميذ مسلم خاصة كتباً فى الصحيح ، ومنهم أبو حامد (المتوفى عام ٣٢٥ هـ) وأبو سعيد (المتوفى عام ٣٥٣ هـ) — طبقات السبكى ج ٢ ص ٩٢ وما بعدها .

(٢) Goldziher, Muh. Studien, II. 257, 273. ، وقد ذكر النووى فى شرحه على مسلم (ج ١ ص ١٧) تلاميذ الدارقطنى .

(٣) ترجمة مارسيه لتقريب النووى ، انظر Marçais, JA, 1901, 18, S. 115 f. و Goldziher, Muh. Studien, II 241. .

(٤) ترجمة مارسيه للنووى JA. 1900. 16, 321 .

العلماء بتأليف كتب الحديث الكبرى المعتمد عليها بدأوا فى الفحص عن الرجال المذكورين فيها وألفوا الكتب فى رواة الصحيحين وهكذا . وقد أدّت بهم حاجتهم إلى السند المتصل[1] أن يتجاوزوا البحث فى حياة الرواة والحكم عليهم إلى عمل تاريخ كامل لهم ؛ وهكذا وُجدت « تواريخ » القرن الثالث الهجرى مثل تاريخ البخارى المتوفى عام ٢٥٦ هـ — ٨٧٠ م ، ومثل الطبقات الكبرى لابن سعد المتوفى عام ٢٣٠ هـ — ٨٤٥ م التى روعى فى تأليفها الزمان والمكان ؛ وكذلك ظهرت تواريخ المدن ، وهى المؤلفات التى ظهرت فى القرنين الثالث والرابع الهجرة ، وتَمَثَّلَ كاملُها فى تاريخ نيسابور الذى ألفه النيسابورى المتوفى عام ٤٠٦ هـ — ١٠١٥ م والذى يرى السبكى أنه يشتمل على تراجم أوفى وأكمل من تراجم الخطيب البغدادى[2] ، وفى تاريخ أصفهان لأبى نعيم المتوفى عام ٤٣٠هـ — ١٠٣٨ م ، وفى تاريخ بغداد للخطيب البغدادى المتوفى عام ٤٦٣ هـ — ١٠٧١ م .

ويدلنا على مقدار الدقة التى أظهرها العلماء فى طريقة النقد ما ذكر عن الخطيب من أنه ألف كتاباً فى « رواية الآباء عن الأبناء » وآخر فى « رواية الصحابة عن التابعين »[3] . وكانت هذه المعارف المتعلقة برجال الحديث تنال أعظم التقدير فى ذلك الوقت ؛ ويُحكى عن القاضى أبى حامد أحمد بن بشر المروزى المتوفى عام ٣٦٢ هـ — ٩٧٢ م ، والمشهور بأنه أستاذ أبى حيان التوحيدى الكاتب الكبير أنه كان بحراً يتدفق حفظاً للسِيَر وقياماً بالأخبار ،

---

(١) ويقال إن الشافعى (المتوفى عام ٢٠٤ هـ) أول من أثار هذه المسألة (انظر ما ذكره مارسيه فى المصدر المتقدم نقلاً عن ابن عبد البر (المتوفى عام ٤٦٣ هـ) .

(٢) طبقات السبكى ج ١ ص ١٢٢ .

(٣) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٢١٨ .

« وكان يزعم أن السيرَ بحر الفتيا وخزانة القضاء ، وعلى قدر اطلاع الفقيه عليها يكون استنباطه[١] » . وأكبر ما كان يثير إعجاب الناس فى الخطيب البغدادى دقتُه وقدرتُه على نقد الوثائق المكتوبة وإثبات تزويرها اعتماداً على معرفته بتواريخ حياة الرجال الذين يُذكرون فيها[٢] . وفى القرن الرابع الهجرى ألف الكرابيسى المتوفى عام ٣٨٧ هـ — ٩٨٨ م كتاباً فى أسماء الرواة وألقابهم ؛ وقد اعتبر هذا الكتاب أحسن الكتب قديمها وحديثها[٣]

على أن الدراسات التاريخية لم تكن محمودة عند العلماء ؛ ويحكى عن ابن إسحاق المتوفى عام ١٥١ هـ — ٧٧٦ م أنه سأل أحد التلاميذ الذين يدرسون التاريخ مستهزئاً به : من الذى كان يحمل لواء الجالوت[٤] ؛ أما الآن فيحكى لنا أبو القاسم الزنجى عن المحدثين الذين سمع منهم فى أول القرن الرابع الهجرى قصصا تاريخية محضة مثل أخبار المبيّضة ، ومقتل حجر بن عدى زعيم الشيعة ، وكتاب صفين ، وكتاب الجمل ونحوها[٥] . ولكن الاتجاه تغير فيما بعد حتى نجد النووى يعيب ابن عبد البرّ المتوفى عام ٤٦٣ هـ — ١٠٧١ م بأنه أفسد كتابه بما ضمنه من أخبار المؤرخين[٦] .

وكذلك وُضعت الأصول التى يبنى عليها نقد الحديث وتكامل بناؤها فى القرن الرابع ، وأخذت مصطلحاتها من هذا العصر أيضا . وقد رتب ابن أبى حاتم

---

(١) السبكى ج ٢ ص ٨٢ — ٨٣ .

(٢) الإرشاد ج ١ ص ٢٤٧ — ٢٤٨ .

(٣) مارسيه فى ترجمته لتقريب النووى : Marçais, JA, 1901, 18, S. 183

(٤) Goldziher, Muh. Studien II 207.

(٥) كتاب الوزراء ص ٢٠٢ .

(٦) التقريب للنووى .JA ., 1901, ., S., 183

المتوفى عام ٣٢٧ هـ — ٩٣٩ م ألفاظ الجرح والتعديل مراتب فأعلاها : « ثقة » أو « مُتْقن » أو « ثَبْت » أو « حجة » أو « عدل » أو « حافظ » أو « ضابط » ، والثانية « صَدُوق » أو « محلُّه الصدق » أو « لا بأس به[1] » ؛ ويقال إن الخطابي المتوفى عام ٣٨٨ هـ — ٩٩٨ م هو أول من عيّن أقسام الحديث الثلاثة الكبرى وهي : الصحيح ، والحسن ، والضعيف ؛ ثم حدد الدارقطني المتوفى عام ٣٨٥ هـ — ٩٩٥ م معنى التعليق ؛ وجاء الحاكم المتوفى عام ٤٠٥ هـ — ١٠١٥ م فجعل أصول الحديث علماً مستقلا ووضع هيكله الذى بقى فى جملته إلى ايامنا ، بحيث إن القرون التالية لم تُضِفْ فى هذا الباب لما تمّ فى القرن الرابع الهجرى إلا أشياء ثانوية ؛ بل إن تقسيم الرواة إلى أنواع صار هو المستعمل منذ عصر الحاكم[2] ؛ ويرجع إلى الخطيب ما جرى عليه كتّاب الحديث من وضع نقطة فى وسط الدائرة التى تكتب فى نهاية الحديث بعد التصحيح بالمقارنة والمقابلة[3] .

أما الدور الثانى فى الناحية العلمية الدينية فقد قام به مُقرئو القرآن . ونجد أن المقدسى مثلا لا يَغْفَل فى كلامه عن البلاد التى وصفها عن ذكر أصحاب القراءات فيها ، وإن كان قد أبان عن عدم محبته المقرئين بأن وصفهم بأنهم لا ينفكون من الطمع وسوء السمعة[4] . وقد وضع ابن مجاهد حوالى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م

---

(١) نفس المصدر Goldziher, Muh. Studien, ، وانظر JA, 1901, 17, S. 146 II, S. 142.

(٢) التقريب .JA. 1900, 16, S, 330 ff ؛ وكذلك فعل ابن حبان المتوفى عام ٣٥٤ هـ ، انظر نفس المصدر ص ٤٨٧ هامش رقم ١ .

(٣) التقريب النووى فى JA, 1901, 17, S. 528

(٤) المقدسى ص ٤١ .

أصول هذه الناحية[١] . وقد قامت حوالى هذا الوقت خلافات شديدة حول قراءة القرآن ، وتدخلت الحكومة ، فاضطهدت بعض أصحاب القراءات ؛ فمثلا ضرب الوزير أبو على بن مقلة ابنَ شنبوذ المتوفى عام ٣٢٨ هـ — ٩٣٩ م بالسوط واضطره أن يتبرأ من قراءات قرأ بها ، وأخذ خطه بالتوبة عنها فكتب : « يقول محمد بن أحمد بن أيوب : قد كنت أقرأ حروفا تخالف مصحف عثمان المجمع عليه والذى اتفق أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم على قراءته ، ثم بان لى أن ذلك خطأ ، وأنا منه تائب وعنه مُقْلِع وإلى الله جل اسمه منه برىء ؛ إذ كان مصحف عثمان هو الحق الذى لا يجوز خلافه ولا يُقرأ غيره[٢] » . ولكن ابن شنبوذ خلّف تلاميذ منهم محمد بن أحمد بن إبراهيم أبو الفرج الشنبوذى المتوفى عام ٣٨٨ هـ — ٩٩٨ م[٣] . على أن قراءات ابن شنبوذ وغيره التى انتهت إلينا لا خطر فيها مطلقاً[٤] . ولكن كانت مسألة القراءات مسألة خطيرة ؛ لأن الاعتقاد بأن القرآن كلام الله من شأنه أن يحتم هذا . وفى سنة ٣٥٤ هـ — ٩٦٥ م توفى أبو بكر العطار المقرئ ؛ وكان قد قرأ بحروف تخالف الإجماع ؛ واستخرج لها وجوهاً من اللغة ذكرها فى كتابه الاحتجاج للقراء ؛ وقراءاته تقوم على تصحيف الكلمات واستخراج وجوه بعيدة لها ؛ وزعم العطار أن كل ما صح فى

---

(١) توفى ابن مجاهد سنة ٣٢٤ هـ — ٩٤٥ م ، وكان وافر الدينة عظيم الهامة ، وكان يدعو الله فى دبر كل صلاة أن يجعله ممن يقرأ فى قبره ؛ وقد رآه بعض الناس فى المنام يقرأ (المنتظم لابن الجوزى ص ١٠٥) .

(٢) الأوراق للصولى ص ٨٢ ، والفهرست لابن النديم ص ٣١ — ٣٢ ، والإرشاد لياقوت ج ٦ ص ٣٠٠ وما يليها ؛ Nöldeke, Gesch. d. Korans S. 274

(٣) طبقات المفسرين للسيوطى ص ٣٨ من طبعة Meursinge ، ومسكويه ج ٥ ص ٤٠٤ والمنتظم ص ١٠٤ .

(٤) ولكنها تحرف القرآن عن معانيه الظاهرة المعقولة . (المترجم)

العربية من كلمات توافق خط المصحف فقراءتها جائزة ؛ وشاعت عنه هذه القراءات الغريبة ، فأنكرها أهل العلم ووصل الأمر إلى السلطان ، فأحضره واستتابه بحضرة القراء والفقهاء ، فأذعن بالتوبة وكُتب محضر بتوبته ، وأثبت جماعة من الحاضرين خطوطهم فى المحضر بالشهادة ؛ وقيل إنه لم ينزع عن تلك الحروف ، وكان يقرأ بها إلى حين وفاته ، واستغوى بعض أصاغر المسلمين من أهل الغفلة والغباوة[١] .

وفى سنة ٣٩٨ هـ — ١٠٠٨ م أظهر بعض الشيعة مصحفا ذكروا أنه مصحف ابن مسعود ؛ وكان مخالفا للمصاحف ، فأشار الفقهاء والقضاة بإحراقه ، فأُحرق بمحضرهم ، ثم ورد إلى الخليفة كتاب بأن رجلا من أهل جسر النهروان حضر المشهد ليلة النصف من شعبان ، ودعا على من أحرق المصحف وسبّه ، فقُتل[٢] .

وكما أن المذاهب الفقهية الأربعة حلت محل غيرها ، فكذلك حلت الحروف السبعة الشرعية المتفق عليها محل القراءات الشاذة فى القرن الرابع الهجرى[٣] ؛ وفى هذا القرن أيضا ظهرت كتب فيما سمى بالقراءات الثمان[٤]

---

(١) المنتظم ص ١٩٨ ، والإرشاد ج ٦ ص ٤٩٩ .

(٢) المنتظم ص ١٥٢ ب ، وطبقات السبكى ج ٣ ص ٢٦ .

(٣) Nöldeke, Gesch. d. Korans, S. 275. ، والفهرست لابن النديم ص ٣١ وما وبعدها ؛ وبستان العارفين السمرقندى ص ٧٣ .

(٤) Nöldeke, Gesch. d. korans, S. 299. ؛ وقد كتب أبو عاتم المصرى المتوفى عام ٣٣٣ هـ فى الاختلاف بين القراءات السبع ، وكذلك ألف مصرى آخر ، وهو فارس ابن أحمد الحمصى المتوفى عام ٤٠١ هـ كتاب التنبأ فى القراءات الثمان . انظر حسن المحاضرة للسيوطى ج ١ ص ٢٣٢ ، ٢٣٤ .

على أن جواز تفسير القرآن لم يكن أمراً مسلّما به فى القرن الرابع دون استيفاء شروطه ؛ فيحكى لنا الطبرى [من أمثلة التحرّج فى ذلك] أن الشعبى مرّ على السُدّى ، وهو يفسر القرآن فقال : « لأن يُضرب على إستك بالطبل خير لك من مجلسك هذا »[١] .

ويخبرنا السمرقندى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى فى يد رجل مصحفاً ، وقد كتب عند كل آية تفسيرها ، فدعى بمقراض فقرضه[٢] . ونقل السيوطى عن الأصمعى مثلا أنه كان شديد التألّه ، فكان لا يفسر شيئا من القرآن ولا شيئا من اللغة له نظير واشتقاق فى القرآن ، وكذلك الحديث تحرّجا[٣] .

على أن الطبرى قد ذكر أمثلة تدل على أن الصحابة ، وخصوصا ابن عباس ، كانوا يفسرون القرآن تفسيراً محموداً[٤] . ولكن نقده[٥] يدل على أن الفريق الذى كان يحجم عن تفسير القرآن كان قويا جداً . وقد روى عن النبى عليه السلام حديثٌ من شأنه أن يوفق بين الفريقين ، وهو قوله « من قال فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » ؛ فكل تفسير يجب أن يستند إلى أثر وارد عن النبى ، ولا يجوز أن يُعتمد فيه على الرأى ؛ ولا يكون القول بالرأى إلا فى التفسير اللغوى للألفاظ[٦] . على أننا نجد فى تفسير الطبرى نفسه دليلا على أن المفسّر يستطيع رغم

---

(١) تفسير الطبرى ج ١ ص ٣٠ طبعة المطبعة الميمنية بمصر .

(٢) بستان العارفين ص ٧٤ — ٧٥ .

(٣) المزهر للسيوطى ج ٢ ص ٢٠٤ انظر أيضاً : Goldziher, SWA, Bd. 72, S. 630

(٤) التفسير الطبرى ج ١ ص ٢٦ .

(٥) ص ٢٦ — ٣٠ .

(٦) تفسير الطبرى ج ١ ص ٢٧ .

هذه القيود أن يقول فى تفسيره بحذق ومهارة أشياء كثيرة ينبغى ألا تقال فى التفسير[١] ؛ هذا مع العلم بأن العلماء يقولون عن تفسير الطبرى إنه لم يؤلف مثله ، لأن صاحبه جمع فيه بين الرواية والدراية ، ولم يشاركه فى ذلك أحد لا قبله ولا بعده[٢]

على أن السمرقندى مع حريته الكبيرة فى الرأى ، ومع كونه حنفياً ، قد تكلم فى هذه المسألة بلا لبس ، ومنع كل تفسير بالرأى ؛ وكل ما أجازه هو أن يحكى المفسر ما سمعه من بعض الأئمة على سبيل الحكاية ؛ وإذا أراد أن يستخرج حكما من الآية فلا بأس أن يقول المراد من الآية كذا وكذا ؛ أعنى أن التفسير عند السمرقندى يكون على صورة الفصول المتعلقة بتفسير القرآن عند البخارى ومسلم ، وهو ما يفعله الفريق الثانى من المفسرين عند السيوطى ؛ وهم المفسرون المحدثون الذين صنفوا التفاسير مسندة مورداً فيها أقوالُ الصحابة والتابعين بالإسناد[٣] . ثم إن السمرقندى يسمح بأن تستنبط التفاسير الفلسفية والآراء الفقهية فى الأحكام والأوامر من ذلك[٤]

والجديد الذى نلاحظه فى تفسير القرآن فى هذا القرن وفى القرن الذى تقدمه هو تعاون المعتزلة واجتهادهم فى تفسير القرآن . وممن ألف فى التفسير منهم أبو على الجبائى ؛ ويقول الأشعرى تلميذه وخصمه وابن زوجته إنه فى هذا التفسير ما روى

---

(١) مثلا ج ١ ص ٥٨ عند الكلام عن القدر .

(٢) طبقات المفسرين للسيوطى طبعة Meursinge ص ٣٠ .

(٣) نفس المصدر ص ٢ .

(٤) بستان العارفين ص ٧٥ وما بعدها ؛ ولم أستطع أن أحقق إلى أى حد عمل السمرقندى بهذه الأحكام فى تفسيره الذى لا يزال مخطوطاً .

حرفاً واعداً عن المفسرين ، وإنما اعتمد على ما وسوس به في صدره وشيطانه[١] .

على أن أهل المغرب السنيين تردّدوا في اتباع الأشعري في تفسيره القرآن ؛ وكانوا يتركون التأويل ويُمِرُّون المتشابهات كما جاءت اقتداء بالسلف ، حتى جاء ابن تومرت وحملهم على القول بالتأويل والأخذ بمذهب الأشعرية[٢] .

وقد ألف أبو الحسن علي بن عيسى الرماني المتوفى عام ٣٨٥ هـ — ٩٩٥ م ، وهو عالم بالكلام والفقه والنحو واللغة ، تفسيراً للقرآن ؛ وقد بلغ من قيمة هذا التفسير أنه قيل للصاحب ابن عباد : هلاّ صنّفت تفسيراً ! فقال : وهل ترك لنا علي ابن عيسى شيئا[٣] ؟ وكذلك ألف أبو بكر النقّاش المعتزلي المتوفى ببغداد عام ٣٥١ هـ — ٩٦٢ م ، تفسيراً كبيراً يقع في اثني عشر ألف ورقة[٤] ؛ و « كان يكذب في الحديث »[٥] . وكذلك صنّف أبو بكر الإدفوي المصري المتوفى عام ٣٨٨ هـ — ٩٩٨ م تفسيراً يقع في مائة وعشرين مجلد[٦] . ولم يزد عليه في عظم التأليف إلا عبد السلام القزويني شيخ المعتزلة ببغداد المتوفى عام ٤٨٣ هـ — ١٠٩٠ م فإنه ألف تفسيراً في ثلثمائة مجلد منها سبعة مجلدات في الفاتحة[٧] .

ونستطيع أن نكوّن لأنفسنا فكرة عن طريقة هؤلاء المفسرين إذا عرفنا

---

(١) W. Spitta, Zur Gesch. Abu'l Hassan al Asch'ari's, Leipzig, 1876, S. 127. 128.

(٢) Goldziher, ZDMG, 41, S 69. عن تاريخ البربر لابن خلدون ج ١ ص ٢٩٩ .

(٣) المعتزلة لابن المرتضى ص ٦٣ ؛ والمفسرين للسيوطي ص ٢٤ .

(٤) الفهرست لابن النديم ص ٣٣ ؛ والإرشاد لياقوت ج ٦ ص ٤٩٧ .

(٥) السيوطي ص ٣٠ .

(٦) حسن المحاضرة للسيوطي ج ١ ص ٢٣٣ .

(٧) السيوطي ص ١٩ ؛ ويقول السبكي (الطبقات ج ٣ ص ٢٣٠) إن هذا التفسير سبعمائة مجلد .

أن عبيد الله الأسدى المعتزلى المتوفى عام ٣٨٧ هـ — ٩٩٧ م صنّف تفسيراً للقرآن ذكر فيه فى بسم الله الرحمن الرحيم مائة وعشرين وجهاً[١] .

ولما كانت كل فرقة من الفرق فى هذا العصر تستدّ بالقرآن وترجع إليه بحيث كان مصدرها الأكبر للاستشهاد ومستودعها الذى تتسلح به فى أدلتها فقد كان لا بدّ للقرآن ، ككل كتاب مقدّس ، أن يتعرض لكثير من التكلف فى التفسير . وقد اشتهر الصوفية والشيعة بأنهم أصحاب تأويلات ؛ وقد جروا على عادة مألوفة من قبل وهى الخروج عن ظاهر القرآن بالتأويل البعيد لإثبات دعاويهم[٢] . وحاول بعض الشيعة أن يؤوّلوا كثيراً من الأسماء الواردة فى القرآن بأنها أسماء أشخاص ؛ فقالوا إن البقرة التى أمر قوم موسى بذبحها[٣] هى عائشة ، وإن الجبْت والطاغوت[٤] هما معاوية وعمرو بن العاص[٥] .

أما المفسرون العلماء فكانوا على خلاف ذلك ؛ ومنهم أبو زيد البلخى (المتوفى عام ٣٢٢ هـ — ٩٣٤ م) الذى تتلمذ للكندى ببغداد ، وأخذ عنه الفلسفة والتنجيم والطب وعلوم الطبيعة . كان البلخى يتنزه عما يقال فى القرآن من تأويل بعيد ولا يقول إلا بالظاهر المستفيض من التفسير والتأويل ؛ وقد بيّن ذلك فى كتابه المسمى نظم القرآن[٦] . ثم صنف كتاباً فى البحث عن التأويلات

---

(١) السيوطى ص ٢٢ ؛ ويرى ابن قتيبة خصم المعتزلة أنهم فى تفسيرهم للقرآن ردوه إلى مذاهبهم وحملوه على تحلهم وجاءوا فى إثبات صحة تأويلهم بشواهد لا تعرف (تأويل مختلف الحديث ص ٨٠ وما بعدها) .

(٢) Goldziher, Zahiriten, S. 132. نقلا عن ابن حزم ج ٢ ص ١٤٠ .

(٣) سورة البقرة آية ٦٧ .

(٤) سورة النساء آية ٥١ ، ٦٠ .

(٥) وهذا هو تفسير الروافض للقرآن عند ابن قتيبة فى مختلف الحديث ، ص ٨٠ وما بعدها .

(٦) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ١٤٨ ؛ ولم يذكر صاحب الفهرست هذا الكتاب .

أغضب فيه رجلا قرمطيا ، فقطع هذا القرمطى عن البلخى صلات كان يُجريها عليه[١] .

وكذلك كان لا بدّ للغويين من التدقيق فى الألفاظ حتى أمكن وضع مصطلحات دينية خاصة تتميز عن اللغة المألوفة[٢] . على أنه وإن كان أصحاب المذهب الظاهرى بأجمعهم قد جعلوا أساس مذهبهم الأخذ بالظاهر فى تفسير كتب الشريعة ، وأولها القرآن ، فإن أحداً منهم لم يصنّف تفسيراً للقرآن لأسباب بيّنة ، وهى أن التفسير الحرفى للقرآن لم يكن يرُوق المسلمين فى ذلك العهد كما أنه لا يرُوقنا اليوم .

وقد كانت القصص القديمة العربية واليهودية والمسيحية المذكورة فى القرآن ميداناً خاصا لاختلاف ونزاع شديد ؛ وكانت هى النقطة التى يواجه العلم فيها مشكلة الخوارق ، لأن هذه القصص لا تعرف من تقدم محمداً عليه السلام من الأنبياء عليهم السلام إلا بأنهم أصحاب معجزات ؛ ولذلك نجد أن أشهر الكتب التى ألفها أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبى النيسابورى المتوفى عام ٤٢٧ هـ — ١٠٣٦ م ، والذى كان أوحد زمانه فى علم القرآن ، بعد تفسيره المشهور للقرآن ، هو كتابه المسمى العرائس فى قصص الأنبياء[٣] .

وقد أولع البعض بالغرائب ليقصوها على الناس ؛ وتكلم المطهر المقدسى عن هذا الفريق ، فوصفهم بأن « الحديث لهم عن حمار أشهى إليهم من الحديث

---

(١) الفهرست ص ١٣٨ والإرشاد لياقوت ج ١ ص ١٤١ — ١٤٦ .
Goldziher, Zahiriten, S. 184. [illegible]

(٢) [illegible] وقد ألف أبو رجاء الأسوانى [illegible] (توفى سنة ٣٣٢ هـ — ٩٤٣ م) قصيدة ذكر فيها أخبار العالم وقصص الأنبياء [illegible] (انظر السبكى ج ٢ ص ١٠٨ ، وأبو المحاسن حسن [illegible] ج ٢ ص [illegible])

عن جمل سار ، ورؤيا مُرَبِّية آثر عندهم من رواية مَرْوية »[١] . وأنكر قوم العجائب رأساً ، وصرفها آخرون إلى تأويل منحول[٢] . وقد ألف الرازى الطبيب المشهور حوالى عام ٣٠٠ هـ كتاباً سماه مخاريق الأنبياء لم يستجز المطهر ذكرَ ما فيه « فإنه المفسد للقلب ، المذهب للدين ، الهادم للمروءة ، المورث البغض للأنبياء صلوات الله عليهم »[٣] .

وقد حاول البعض أن يوفقوا بين ما فى القرآن و بين العقل ، فكان ما وصلوا إليه توفيقاً مضحكا غير مُحْكَم كالذى تأدى إليه البروتستانتيون الذين فسروا الإنجيل تفسيراً عقليا . فمثلا تألم بعض العقليين من أن يكون الأطفال قد غرقوا مع آبائهم فى الطوفان بغير ذنب ؛ فقالوا إن الله أعقم أرحام النساء قبل الطوفان ، فلم تحمل منهن واحدة خمس عشرة سنة ، حتى لم يأت الغرق إلا على مستحق العذاب[٤] ؛ وذهب آخرون إلى أن سفينة نوح إنما هى مَثَلٌ للدين الذى جاء به ؛ فأما لبثه فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما فهو مَثَلٌ لبقاء شريعته[٥] . وزعم قوم أنه يجوز أن يكون خروج الناقة المنسوبة لصالح عليه السلام من الصخرة معناه حجة دامغة وسلطان قاهر أذعن له القوم ، وأن يكون شربها ماء العين معناه إبطالُ تلك الحجة جميعَ ما خالفها . وقال البعض يشبه أن يكون خبأها تحت الصخرة ، ثم أخرجها ؛ وزعم آخرون أن اسم الناقة كناية عن رجل وامرأة[٦] .

---

(١) كتاب البدء والتاريخ للمطهر بن طاهر المقدسى طبعة هوار ج ١ ص ٤ .

(٢) نفس المصدر ج ٣ ص ١٧ .

(٣) نفس المصدر ج ٣ ص ١١٠ .

(٤) نفس المصدر ج ٣ ص ١٧ .

(٥) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٢ ، وانظر أيضا التفصيل فى مجلة RHR, Bd 60, 1909 فى مقالة لهوار عنوانها : Le Rationalisme Musulman au IV siècle

(٦) البدء والتاريخ للمطهر المقدسى ج ٣ ص ٤٢ .

وزعم غير هؤلاء أن إبراهيم عليه السلام سحر القوم الذين أوقدوا له النار وطرحوه فيها ، وأطلى ببعض الأدوية التي يبطل معها عمل النار ؛ وساق هؤلاء قصة لبعض الهند وشبهوا إبراهيم بها[١] . أما أصحاب الفيل الذين أهلكهم الله بحجارة ألقتها عليهم طيرٌ أبابيل ، فقد أوّل البعض هذا بأن القوم أحرقتهم ثمار اليمن ، وأوبأهم ماؤها وهواؤها ، فحصبوا ، وجدروا فهلكوا[٢] .

أما عين القطر التي وردت في قوله تعالى : « وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ »[٣] ، فهي إشارة إلى ما اهتدى سليمان إلى استخراجه من معدنه كسائر الجواهر . والهدهد الذي لم يَرَه حين تفقد الطير[٤] كناية عن رجل ، وكذلك أوّل النمل في قوله تعالى : حتى إذا أتَوْا على وادي النمل ... الآية[٥] ، بأنهم قوم ضعاف خافوا خبط عسكر سليمان ؛ والجن والشياطين الذين سُخِّروا لسليمان هم عتاة الناس وأشدّاؤهم وحُذّاقهم وعرفاؤهم بالأمور الغامضة[٦] .

أما المعجزات الوحيدة التي وجّه العلماء إليها اهتمامهم ، فيما عدا القرآن ، فهي معجزات محمد عليه السلام ؛ وهي ، وإن لم ترد في القرآن ، فقد ذكر في الأحاديث التي جُمعت في القرن الثالث الهجري نحوُ المائتين منها

وقد حاول بعض المتكلمين أن يؤوّلوا هذه المعجزات ؛ فمثلا قالوا إن أبصار من اجتمع من قريش ليلة الدار قد غُشّيت بالنوم لم تَنَمْ حقيقة ، بل هم أعدام الحقدُ

---

(١) نفس المصدر ج ٣ ص ٥٥ .
(٢) نفس المصدر ج ٣ ص ١٨٧
(٣) سورة سبأ آية ١٢ .
(٤) سورة النمل آية ٢٠ .
(٥) سورة النمل آية ١٨ .
(٦) البدء والتاريخ ج ٣ ص ١٠٩ .

والغيظ والغضب . ولم يكن إبليس هو الذى كلّم المتآمرين ليعينهم بالرأى ، بل هو رجل ممن يعمل بعمل إبليس ، فسُمى بذلك[١] .

على أنه كان بين المسلمين المثقفين طائفة ممن حسن إسلامهم قالوا بهذه المعجزات من غير أن تطمئن قلوبهم لذلك . وقد ألّف المطهر بن طاهر المقدسى حوالى عام ٣٥٥ هـ — ٩٦٦ م كتابه المسمى البدء والتاريخ ليحمى الإسلام ممن يشحنون صدور العامة بترّهات الأباطيل ، ويقصون عليهم غرائب العجائب ، معتقدين كل غريب وحاكين كل أسطورة ، وليحميه أيضا من الشكّاك الذين لا يؤمنون بشىء . وهو لا يمل من الإعراب عن رأيه بالتصديق بما نزل به الوحى وبما جاءت به السنّة الصحيحة ، وهو كذلك لا يستطيع إخفاء سروره حينما يوفّق إلى تأييد إحدى المعجزات بأدلة العقل الذى يعتبره « أمّ العلوم كلها » . وهو يجيب على من ينكر ما ورد فى الحديث من رفع إدريس إلى السماء بأن « أعظم منه هذا الغيم الراكد فى الجو ، وهذه الأرض فى ثقلها واقفة فى السماء كما ترى »[٢] . وأما من أنكر قصة يونس وأحال إمكان بقاء روح حى فى بطن حيوان ، فإن المطهر يرد عليهم بقوله : « أوليس الجنين فى بطن أمه بمتنفس[٣] حى ؟ فهل يعجز من أبقى الأجنّة فى ظلم الأرحام أن يبقى الأرواح فى أجسام المحبوسين حتى لا يصل إليهم الهواء ؟ »[٤] . وهذا نوع من الدفاع عن الدين قد ألفناه نحن من قبل ؛ ونستطيع أن نستشف ما تنطوى عليه نفس المطهر من سرور خفى ، حينما يعالج المعجزات النبوية بطريقة عقلية ، ويبين جريانها على سنن

---

(١) نفس المصدر ج ٤ ص ١٧٣ والصفحات التالية .

(٢) البدء والتاريخ ج ٣ ص ١٢ .

(٣) فى الأصل متنفس ؛ وأظنها خطأ . (المترجم)

(٤) نفس المصدر ج ٣ ص ١١٢ — ١١٣ .

الطبيعة ؛ وقد تحمس لوضع مبدأ يقوم على أن الشيء قد يكون معجزة فى وقت ، ويكون بعينه غير معجزة فى وقت آخر ، ويكون معجزة لقوم وغير معجزة لقوم آخرين[١]

ويروى عن النبى عليه السلام أنه وعد أمته بقوله : « يبعث الله على رأس كل مائة سنة رجلا من أهل بيتى يبين لهم أمر دينهم » . وقد أحصى العلماء المتأخرون هؤلاء « المجدِّدين » الذين يموت كل واحد منهم فى أوائل قرنه ؛ وقد اختار العلماء فى حوالى عام ٤٠٠ هـ ثلاثة رشحوهم لهذه المهمة ، وكلهم لم يكونوا ذوى شأن عظيم[٢] ؛ وفى حوالى عام ٣٠٠ هـ لم يقع اختيارهم إلا على الأشعرى المتوفى عام ٣٤٣ هـ — ٩٣٦ م[٣] . ويدلّ هذا على قلة العلماء بين جمهور أهل السنة ، لأن أعظم مفكرى الإسلام فى ذلك العهد كانوا جميعاً بين صفوف المعتزلة الذين كانت تنبعث من عندهم جميع المسائل التى يعالجها المتكلمون .

ولم يكن المعتزلة من حيث هم فرقة لها مذهبها الخاص أشد مخالفة لأهل السنة من الشيعة فى ذلك العهد ، ذلك أن من الفريقين ، كما قال ابن حزم ، من يخالف أهل السنة الخلاف البعيد ، ومنهم من يخالفهم الخلاف القريب[٤] . وفى القرن الرابع الهجرى كانت مخالفة المعتزلة لجمهور المسلمين مخالفة كلامية محضة لا تخرج

---

(١) نفس المصدر ج ٤ ص ١٧٥ — ١٧٦ .

(٢) لما ألف معتزلته لم يكن القاضى أبو بكر الباقلانى ، أعظم متكلمى القرن الرابع ، معروفاً قبل ذلك بشىء ، كما ينبغى له ؛ وقد اعتبر المجدد الموعود به على رأس المائة الرابعة ؛ راجع مقدمة كتاب التمهيد ط . القاهرة ١٩٤٧ ص ٩ ، والملحق ص ٢٤٤ . (المترجم)

(٣) Goldziher, Zur Charakteristik es—Suyûtis SWA, Bd. 69, S. 8 ff. ؛ وقد اختلف العلماء هل لكل قرن مجدد واحد أم له مجدد فى كل علم من علوم الدين ؟ كان الذهبى يذهب إلى هذا الرأى الأخير ، ويقول كان على رأس المائة الثالثة ابن سريج فى الفقه والأشعرى فى أصول الدين والنسائى فى الحديث . (انظر طبقات السبكى ج ٢ ص ٨٩) .

(٤) الفصل لابن حزم ج ٢ ص ١١١ .

عن حدود مسائل علم الكلام ، وهى شبيهة بخلاف الصوفية ؛ لأن هؤلاء اعتبروا فرقة إلى جانب الفرق الأخرى الكبيرة[١] . أما فى العبادات فقد كان المعتزلة فى الغالب متفقين مع أهل السنة ؛ هذا إلى أنه كان بين المعتزلة شيعة كالزيدية ؛ وكان من هؤلاء بعض أهل البيت مثل أبى عبد الله الداعى ، وهو أحد تلاميذ أبى عبد الله البصرى[٢] . وكان من الشيعة المعتزلة المشهورين إلى جانب من تقدم أبو الحسين الراوندى[٣] والرمانى اللغوى[٤] المتوفى عام ٣٨٤ هـ — ٩٩٤ م ، وكان أساتذتهم كلهم تقريبا فُرْسا عاجروا إلى العراق أو استوطنوا أصفهان ؛ بل يقال إن الجبائى المتوفى عام ٣٠٣ هـ — ٩١٥ م ألف تفسيراً للقرآن بالفارسية[٥] . وكان موضوع بحث المعتزلة علم العقائد بمعناه المحدود ، وأول ما عالجوا من ذلك مسألة القدر وما يتصل بها من وصف أفعال الله بالخير والشر . وكانت هذه المسألة أكبر ما أثار اهتمام أدمغتهم التى تأثرت بمذهب زرادشت . وكان إمام المعتزلة فى عصر المأمون أبو الهذيل العلاّف وأكبر ماظهرت فيه مقدرته وانتصاراته ردوده على الثنوية[٦] . وفى أواخر القرن الثالث الهجرى أخرج المعتزلة أكبر مدافع عن مذاهب الثنوية ، وهو ابن الراوندى الذى كان من المعتزلة ، ثم انسلخ عنهم ، وشنّع عليهم حتى اتهموا بالسلطان على قتله[٧] . وفى القرن الرابع

---

(١) البدء والتاريخ للمطهر المقدسى ج ١ ص ١٦ .

(٢) المنزلة لابن المرتضى ص ٦٣ .

(٣) انظر فيما يتعلق به مقدمة نيبرج لكتاب الانتصار للخياط ط . القاهرة ١٩٢٥ وما كتبه عنه ريتر فى مجلة Der Islam مجلد ١٩ (١٩٣١) من ص ١ — ١٧ ، وكراوس فى مجلة الدراسات الشرقية (RSO) التى تصدر فى روما ، مجلد ١٤ (١٩٣٤) ص ٩٣ — ١٢٩ ، ٣٣٥ — ٣٧٩ . (المترجم)

(٤) طبقات المفسرين للسيوطى ص ٢٤ .

(٥) Spitta, el—Asch'ari, 87.

(٦) المنية لابن المرتضى ص ٢٥ — ٢٧ .

(٧) نفس المصدر ص ٥٣ — ٥٤ .

الهجرى كان نصيب المعتزلة فى أصفهان على الأقل[1] نصيب الصوفية من أنهم دخل فيهم بعض الشيعة فانتسبوا بسبب ذلك لعلى وردوا سند مذهبهم إليه[2] . ويذكر الخوارزمى أن المعتزلة يعتدون بالحسن البصرى — الذى يعتد الصوفية به ويدّعونه لأنفسهم — اعتداد الشيعى بالوصىّ ، واعتداد الزيدية بزيد بن على ، والإمامية بالمهدى[3] . ونجد آثاراً متفرقة تدل على أثر مذاهب الفنوسطيين فى المعتزلة مثل ما يحكى عن أحمد بن حائط من قوله إن العالم خالقين : أحدهما قديم وهو الله تعالى ؛ والآخر حادث ، وهو كلمة الله عز وجل ، عيسى بن مريم ، التى بها خلق العالم[4] . وكان بعض المعتزلة فى القرن الرابع يتكلمون فى القدر وفى تحديد معنى الفسق والإيمان . ولكن كانت عمدتهم التى يتمسكون بها هى الكلام فى التوحيد وما يوصف به الله تعالى ؛ ثم يزيد بعضهم غير ذلك[5] . ولا

---

(١) نفس المصدر ص ٦١ — ٦٢ .

(٢) نفس المصدر ص ٥ — ٦ .

(٣) اليتيمة للثعالبى ج ٤ ص ١٢٠ .

(٤) الفصل لابن حزم ج ٤ ص ١٩٧ .

(٥) كان هؤلاء القليلون الذين لم يزالوا يعالجون البحث فى مسألة الاختيار والقدرة الإنسانية يسمون « القدرية » ؛ وليس من السهل بيان معنى هذه الكلمة ؛ فالقدرية عند ابن قتيبة هم الذين أضافوا القدر إلى أنفسهم (تأويل مختلف الحديث ص ٩٨) ، يعنى أنهم أصحاب الاختيار ، وهم الذين يخالفون الجبرية ؛ ولكن هذا التفسير متناقض ؛ لأن لفظ القدرية كان يطلق قديماً على القائلين بالقدر من الله خيره وشره . ويحكى عن زيد بن على أنه قال : « أبرأ من القدرية الذين حملوا ذنوبهم على الله » ، ومن المرجئة الذين أطمعوا الفساق فى عفو الله » (كتاب المعتزلة لابن المرتضى ص ١٢) . أما فى القرن الثالث فكانوا يقولون على وجه التدقيق إن الله تعالى يخلق الخير وإن الشيطان يخلق الشر (ابن قتيبة مختلف الحديث طبعة القاهرة ١٣٢٦ هـ ص ٥ ، والأشعرى ، فى الإبانة كما ذكر ذلك Ritter, 1911) ، ويسمى هذه الأثنينية ، سمى المعتزلة « مجوس الأمة الإسلامية » (ابن قتيبة ص ٩٦) ؛ ويحكى عن أحمد أنه قال لرجل من أهل الذمة : ألا تسلم يا فلان ؟ فقال : حتى يريد الله ؛ فقال له : قد أراد الله . ولكن إبليس لا يدعك ؛ فقال له الذى : فأنا مع أقوى (ابن قتيبة ص ٩٨ — ٩٩) . ويسمى هذه الأثنينية أيضاً ، سمى القائلون بالاختيار قدرية فى حين أن الاختيار =

يخلو ذلك من تأثير الفلسفة اليونانية التى كان لها أثر فعال فى تحريك الخواطر فى أثناء القرن الثالث ، وإن كان تأثيرها مقصوراً على الطبقة العليا من المتكلمين كالنظام والجاحظ[١] ، ومن تأثير علم العقائد المسيحى الذى كان طول تلك المدة مهتما ببيان وحدة الذات وتنزهها عن الكثرة[٢] . ولما كان المعتزلة قد جعلوا عمدة بحثهم الكلام فى ذات الله وصفاته ، فلم يقتصر الأمر على أن صارت هذه المسألة أهم مسائل العقائد الإسلامية حتى اليوم ، بل أدى كلامهم فى هذه المسألة إلى طبع الفلسفة العربية بطابع خاص ، كما أن مباحثهم فى هذا الموضوع كان لها أثر فى مذهب سبينوزا ، ونفذ التأثير من مذهب سبينوزا إلى الفكر الأوربى . ويقول ابن حزم إن المعتزلة هم الذين اخترعوا لفظ الصفات ، وكان المستعمل قبل ذلك هو كلمة « النعوت » أو « الأسامى »[٣] .

أما ما يمتاز به المعتزلة من الخصال فيقول المقدسى[٤] : إنهم لا ينفكون من

= يقولون : إن إطلاق اسم القدرية على من يقول بالقدر خيره وشره من الله أولى (الشهرستانى على هامش ابن حزم ج ١ ص ٥٤ ، وابن قتيبة ص ٩٧) . وفى القرن الرابع ، يقول المقدسى : إن المعتزلة غلبوا على القدرية (ص ٣٧) ، ويقول الأشعرى (Spitta, 131) ما يدل على أن القدرية هم المعتزلة ، ويقول المقدسى — إلى جانب ما تقدم من غلبة المعتزلة على القدرية — إنه لا يميز إحداهما من الأخرى إلا كل تحرير (ص ٣٨) . وقد حاول القاضى عبد الجبار بالرى ، حوالى أول القرن الخامس ، وكان القاضى أكبر شيوخ المعتزلة فى عصره ، أن يثبت من الأحاديث أن اسم القدرية لا ينبغى أن يطلق على المعتزلة ، بل على القائلين بالقدر خيره وشره من الله) انظر مقالة الأستاذ شرينر : Schreiner, ZDMG 52. S. 209 f.

(١) S. Horovitz : über den Einfuss der griechishosen philosophie auf die Entwicklung des Kalam, Breslau 1909. [ولكن الاشتغال بالمباحث الفلسفية والتأثر بها ، شمل كثيرين غير الجاحظ وأستاذه النظام . المترجم] .

(٢) Becker, ZA, Bd 26, 175 ff.

(٣) البخارى : كتاب التوحيد نقلا عن جولدزيهر Goldziher, Die Zahiriten, S. 145, Anm .1.

(٤) المقدسى ص ٤١

أربع خصال : الطلاقة والعراية والفسق والسخرية . ومما يدل على أن المعتزلة كانوا مولعين بالمناظرة والجدل [١] أن مذهبهم كله يقوم على الجدل [٢] ، ولذلك قال المعتزلة إن المختلفين كلاهما على صواب [٣] . ومع ذلك كانوا متكافئين حتى إن تكافئهم فى القرن الرابع كان مضرب المثل ، وحتى تمثل الخوارزمى باعتداد المعتزلى بالمعتزلى [٤] . وكان المتكلمون ينظرون فى كل شىء ، « وأرادوا معرفة كل شىء » [٥] . وكان من يسمون بالفلاسفة ينظرون إليهم بعين التصغير » ، كما ينظر الباحث فى علم النفس التجريبى إلى صاحب ما بعد الطبيعة » [٦] وكان الفلاسفة يرمون المتكلمين بالتعصب واستحسان التقليد والعجاج ، وأنهم « انفتح باب الحيرة عليهم وسُدّ باب اليقين عنهم ، ولهذا قلّ تألههم وتنزههم ، وصاروا يقولون بتكافؤ الأدلة » [٧] . ولما كان المتكلمون ينكرون السحر بجميع صوره والتنجيم ، بل أنكروا كرامات الأولياء [٨] فإننا نستطيع أن نعتبرهم من دعاة

---

(١) يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٠٦ .

(٢) وقد كان القفال أبو بكر الشاشى ، المتوفى عام ٣٣٦ هـ (أو ٣٣٥) ، أحد أئمة الشافعية ، أول من صنف فى الجدل (أبو المحاسن ج ٢ ص ٣٢١ طبعة ليدن) .

(٣) بستان العارفين السمرقندى ، ص ١٠ .

(٤) رسائل الخوارزمى ص ٦٣ (ف) .

(٥) الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ١٠٩ (ف) .

(٦) كتاب معانى النفس Goldziher, AGGW, N. F., 10, S. 13 ff.

(٧) انظر G[illegible]ziher, ZDMG, Bd, 62, S, 2 ff. ، نقلا عن التوحيدى فى المقابسات (طبعة بمباى ص ٥٢) . على أن المتكلمين من جانبهم يطعنون فى الفلاسفة ، فيحكى أن رجلا سوفسطائياً أنكر الضروريات فى مجلس أبى القاسم البلخى . وألقمها بالخيالات ؛ فقام البلخى إلى بغل جاء السوفسطائى راكباً عليه وخبّأه ، ثم قام السوفسطائى من غير أن يقتنع ، فلما لم يجد البغل ، رجع إلى أبى القاسم ، فقال له أبو القاسم : لعلك تركته فى غير هذا الموضع ، أو لعلك لم تأت راكباً ، وخيل إليك ذلك تخييلا ؟ وجاءه بأنواع من هذا الكلام ، حتى رجع عن مذهبه (المعتزلة لابن المرتضى ص ٥١) .

(٨) لم يكن هذا مذهب المتكلمين جميعا . (المترجم)

حرية الفكر والاستنارة ، رغم مذهبهم الكلامى ، وما كان لهم فيه من تدقيقات . جاء فى كتاب الإرشاد لياقوت : « اتفق أهل صناعة الكلام على أن متكلمى العالم ثلاثة : الجاحظ ، وعلى بن عبد الله اللطفى ، وأبو زيد البلخى » ، والأول والثالث من هؤلاء الثلاثة — ولا أعرف من أمر الثانى شيئاً — رجلان يمثلان الفكر الحر على نحو جدير بالتقدير ؛ أما الجاحظ « فيزيد لفظه على معناه » ؛ وأما أبو زيد « فيتوافق لفظه ومعناه[1] » ، والجاحظ يشبه ڤولتير Voltaire ؛ أما أبو زيد (وقد توفى عام ٣٢٢ هـ — ٩٣٣ م ، وقد جاوز الثمانين) فقد كان أثبت وأكثر اتزاناً ، وهو يشبه الإسكندر همبولت Alexander Humboldt بين دعاة الفكر الحر فى القرن التاسع عشر . وقد جمع إلى دراسة الفلسفة دراسة التنجيم والطب والجغرافيا وعلوم الطبيعة ؛ وألف كتاباً سماه نظم القرآن ، تكلم فيه بكلام لطيف ، وكان يتنزه عن التأويل البعيد للقرآن . وكان الحسين بن على المروروزى يجرى عليه صلات دائمة ، فلما أملى كتابه فى البحث عن التأويلات قطعها عنه ؛ وكان الجيهانى يُجرى عليه صلات أيضاً ، فلما أملى كتاب القرابين والذبائح حرمه إياها ، وكان الحسين قرمطيا والجيهانى ثنويا . وهاك مثالا من نظر خصوم الجاحظ إليه فيما كتبه ابن قتيبة : « هو آخر المتكلمين ، والمعابر على المتقدمين ، وأحسنهم للحجة استشارة ، وأشدهم تلطفاً لتعظيم الصغير حتى يَعظُم وتصغير العظيم حتى يصغُر ؛ ويبلغ به الاقتدار إلى أن يعمل الشىء ونقيضه ، ويحتج لفضل السودان على البيضان ، وتجده يحتج مرة للعثمانية على الرافضة ومرة للزيدية على العثمانية وأهل السنة ، ومرة يُفضِّل عليًّا رضى الله عنه ومرة يؤخره ؛ ويقول : قال رسول الله صلى عليه وسلم ،

---

(١) الإرشاد ج ١ ص ١٤١ — ١٤٨ .

ويتبعه : قال الجاز ، وقال إسماعيل بن غزوان كذا وكذا من الوحش . ويتجلّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن يذكر فى كتاب ذُكرا فيه ، فكيف فى ورقة أو بعد سطر وسطرين ؟ ويعمل كتاباً يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين ؛ فإذا صار إلى الردّ عليهم تجوز فى الحجة ، كأنه إنما أراد تنبيههم على ما لا يعرفون وتشكيكَ الضعَفَة من المسلمين . وتجده يقصد فى كتبه للمضاحيك والعبث ؛ يريد بذلك استمالة الأحداث وشُرّاب النبيذ ؛ ويستهزئ من الحديث استهزاء لا يخفى على أهل العلم ، كذكره كبد الحوت ، وقرن الشيطان ، وذكر الحجر الأسود ، وأنه كان أبيض فسوّده المشركون ، وقد كان يجب أن يبيّضه المسلمون حين أسلموا ؛ ويذكر الصحيفة التى كان فيها المنزل فى الرضاع تحت سرير عائشة ، فأكلتها الشاة ، وأشياء من أحاديث أهل الكتاب فى تنادُم الديك والغراب ، ودفن الهدهد أمّه فى رأسه ، وتسبيح الضفدع ، وطوق الحمامة ، وأشباه هذا ... وهو مع هذا من أكذب الأمة وأوضعهم لحديث وأنصرهم لباطل »[1] . وقد رُويت عن المعتزلة أقوال أخرى يقشعر لها جلد المسلم الحق ويمجها قلبه ، فيذكر ابن قتيبة أن ثُمامة بن أشرس كان ينتقص الإسلام ويرسل لسانه بما لا يكون من رجل يعرف الله ويؤمن به ، « ومن المحفوظ عنه المشهور أنه رأى قوماً يتعادَوْنَ يوم الجمعة إلى المسجد لخوفهم فَوْتَ الصلاة فقال : انظروا إلى البقر ! انظروا إلى الحمير ! ثم قال لرجل من إخوانه : ما صنع هذا الشر بالناس ! »[2].

وفى القرن الثالث الهجرى كان أهل السنة ينظرون إلى المعتزلة بعين الكراهية والاحتقار ؛ ثم خرج الأشعرى حوالى آخر القرن الثالث على المعتزلة ، بعد أن

---

(١) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٧١ — ٧٢ طبعة مصر ١٣٢٦ هـ .

(٢) ابن قتيبة ص ٦٠ .

كان منهم ، وبدأ يحاربهم بسلاحهم ؛ وعلى هذا نشأ فى القرن الرابع الهجرى المذهبُ الكلامى الرسمى القائم على العلم والنظار العقل ، وكان مذهب الأشعرى مذهب توفيق ، وذلك شأن كل مذهب رسمى ، ولذلك سمى مذهباً أوسط[1] ؛ وقد حسب الأشعرى أن فى قدرته أن يوفق بين مذهب أهل السنة و بين العقل ، وأعلن فيما كتبه تمسكه بمذهب الحنابلة ؛ يقول الأشعرى : « قولُنا الذى نقول به ، وديانتنا التى ندين بها ، التمسكُ بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وما روى عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ؛ ونحن بذلك معتصمون ؛ وبما كان عليه أحمد بن حنبل ، نضر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته ، قائلون ، ولمن خالف قولَه قولَه مُجانبون ؛ لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل الذى أبان الله به الحق عند ظهور الضلال »[2]

ولكن الحنابلة كانوا يخاصمون الأشعرى[3] ، فيقول ابن الجوزى إن الأشعرى ظل معتزليا دائما[4] ؛ وقد قُدِّر لمذهب الأشعرى ما يقدر عادة لغيره من المذاهب التى تميل إلى التوسط والتوفيق بين ما اختلف ؛ فانحرف عنه أهم تلاميذ الأشعرى مائلين إلى رأى الخصوم العقليين ، وأكبر ما نجد ذلك عند الباقلانى المتوفى عام ٤٠٣ هـ — ١٠١٢ م ؛ فإنه أدخل فى علم العقائد مسألة الجزء الذى لا يتجزأ ، والخلاء ، وغير ذلك من الأشياء الغريبة عنه[5] . وكان القاضى

---

(١) Spitta, Asch'ari, 46 ، وكان أسلاف الأشعرية الأقربون بين المتكلمين هم : الكلابية الذين اندمجوا فى الأشاعرة فى القرن الرابع ؛ وكانوا ينكرون الجبر (مقدسى ص ٣٧) .

(٢) Spitta, 183.

(٣) نفس المصدر ص ١١١ .

(٤) المنتظم ص ٧١ ب ، على أن ابن الجوزى إنما قال : إن الأشعرى ظل على مذهب المعتزلة زماناً طويلا (أربعين سنة) ثم تركه وأتى بعقالة خبط بها عقائد الناس . (المترجم)

(٥) Schreiner, Or. Konger. Stockholm, I, 1, S. 82. ، نقلا عن ابن خلدون (المقدمة ، الفصل الخاص بعلم الكلام) ؛ [راجع مقدمة كتاب التمهيد للباقلانى ، لجنة القاهرة ١٩٤٧ ص ١٣ وما بعدها — المترجم] .

عبد الجبار بالرىّ (توفى سنة ٤١٥ هـ — ١٠٢٤ م) فى ابتداء حاله يذهب فى الأصول مذهب الأشعرية ، ثم انتقل إلى خصومهم — المعتزلة — وإليه انتهت الرياسة فيهم حتى صار شيخهم وعالمهم غير مدافع[١] . وكان الصاحب بن عباد قد أحسن إليه وقدّمه وولاّه القضاء ؛ فلما تُوفى الصاحبُ قال عبد الجبار : لا أرى الترحم عليه ، لأنه مات من غير توبة ظهرت منه ؛ فنسب عبد الجبار إلى قلة الوفاء[٢] . ونرى من هـذا أن المعتزلة لا يستحقون كل ما ينسب إليهم من أنهم أصحاب الفكر الحر .

وفى غضون القرن الرابع الهجرى كان أصحاب مذهب السنّة القدماء يحاربون الشيعة الذين صفّروا خدودهم ببغداد ، ويضيّقون على متكلمى المعتزلة فى سائر البلاد ، حتى تغصوا عليهم العيش ؛ ولكنهم على الرغم من استهوائهم العامة وإثارتهم لهم لم ينجحوا فى ذلك إلا قليلا ، ولا نسمع من أمثلة هذا الاضطهاد إلا قليلا[٣] ؛ ولم يكن مذهب الأشعرى قد قوى فى ذلك العهد بحيث يُعتبر خصما ويُهاجَم ، فإنه لم ينتشر فى العراق إلا منذ نحو سنة ٣٨٠ هـ[٤] ، وعند ذلك بدأت تظهر آثار الاضطهاد له ؛ وقد حاول الحنابلة أن يمنعوا الخطيب البغدادى المتوفى عام ٤٦٣ هـ — ١٠٧١ م من دخول المسجد الجامع ببغداد ، لأنه كان يذهب مذهب الأشعرى[٥] ؛ وكان أكابر الأشاعرة فى ذلك العهد يُضْطَهدون وينفون فى أيام طغرل بك . وقربَ أواخر القرن الرابع تحاملت الحنابلة على رجل

---

(١) المعتزلة لابن المرتضى ص ٦٦ .

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ٧٧ .

(٣) Zwei besonders charackteristische.... bei Goldziher, ZDMG. 62 S. 8

(٤) الخطط للمقريزى ج ٢ ص ٣٥٨ .

(٥) كان الخطيب البغدادى يتعصب على الحنابلة (المنتظم ص ١١٨ ب)

من كبار الأشاعرة ذوى النفوذ ، وهو القشيرى المتوفى عام ٥١٤ هـ — ١١٢٠ م ؛ ووقع بسبب تهييج الحنابلة فقال في الشوارع ، واضطر القشيرى إلى ترك بغداد[١] . ومن هذه الحادثة أرّخ ابن عساكر مبدأ وقوع الانحراف بين الحنابلة والأشاعرة[٢] . ولم ينتشر مذهب الأشاعرة ، وهو المذهب الكلامى الجديد الذى قدّر له أن يصير مذهب جمهور المسلمين إلا انتشاراً بطيئاً فى المملكة الإسلامية ؛ ففى أقصى المشرق كان الماتريدية ينافسون الأشاعرة ، وذلك على الرغم مما بين الفريقين من تشابه فى أصل المذهب ، وكان لا بد للأشاعرة أيضاً أن يدرأوا هجمات الحنابلة الذين كان شيخهم حوالى عام ٤٠٠ هـ — ١٠١٠ م يلعن أبا الحسن الأشعرى أمام الملأ وينال من الأشاعرة[٣] ، وأن يقاوموا أيضاً هجمات الكرامية الذين تحزّبوا على الأشاعرة ، ورفعوا أمرهم إلى السلطان محمود بن سبكتكين مدّعين أن الأشاعرة يعتقدون أن النبى صلى الله عليه وسلم ليس نبيًّا اليوم وأن رسالته انقطعت بموته ، ولم يكن هذا مُعتقداً الأشاعرة[٤] .

أما فى المغرب فقد انتشر مذهب الأشاعرة من بلد إلى آخر ؛ فثقافت لهم سوق فى صقلية والقيروان والأندلس ، « ثم رق أمرهم والحمد لله رب العالمين »[٥] . ولم يكن مذهب الأشاعرة معروفاً قط فى شمال إفريقية حتى حمله إليها محمد بن تومرت حوالى عام ٥٠٠ هـ — ١١٠٧ م[٦] .

---

(١) Goldziher, ZDMG, 62, S. 8.

(٢) Spitta. Aschari, S. 148.

(٣) طبقات السبكى ج ٣ ص ١١٧

(٤) نفس المصدر ج ٣ ص ٥٤ .

(٥) الفصل لابن حزم ج ٤ ص ٢٠٤ .

(٦) Goldziher, ZDMG, 41, S. 30 ff

وكانت الحكومة فى أوائل القرن الخامس الهجرى تتدخل نوعاً من التدخل الرسمى لفض المنازعات المذهبية ، ففى عام ٤٠٨ هـ — ١٠١٧ م أصدر الخليفة القادر كتاباً ضد المعتزلة ، فأمرهم بترك الكلام والتدريس والمناظرة فى الاعتزال والمقالات المخالفة للإسلام ، وأنذرهم — إن خالفوا أمره — بحلول النكال والعقوبة . وامتثل السلطان محمود فى غزنة أمرَ أمير المؤمنين واستنّ بسنّته فى قتل المخالفين ونفيهم وحبسهم ، وأمر بلعنهم على المنابر ، « وصار ذلك سنة فى الإسلام »[1] . وصدر فى بغداد كتابٌ آخر سُمّى الاعتقاد القادرى ، وذلك فى سنة ٤٣٣ هـ — ١٠٤١ م وقُرئ فى الدواوين ، « وكتبَ الفقهاء خطوطَهم فيه أن هذا اعتقاد المسلمين ومن خالفه فقد فسق وكفر » ، وكان هذا أول اعتقاد رسمى يعلنه الخليفة[2] ، وكان معنى ذلك نهاية تطور علم الكلام ؛ ويستطيع الرجل الثاقب النظر أن يتبين فى كل كلمة من هذا الاعتقاد جراثيم المنازعات التى مضت عليها قرون ، وهاك نصه : « على الإنسان أن يعلم أن الله عزّ وجلّ وحدَه لاشريك له ، « لم يَلِدْ ولم يُولَد ، ولم يكن له كفواً أحد » ، لم يتّخِذْ صاحبةً ولا ولداً ، ولم يكن له شريك فى الملك ، وهو أوّلٌ لم يَزَلْ ، وآخرٌ لا يزال ، قادرٌ على كل شىء ، غيرُ عاجز عن شىء ، إذا أراد شيئاً قال له : كن ، فيكون ، غنىٌّ غيرُ محتاج إلى شىء ، « لا إله إلا هو الحى القيوم ، لا تأخذه سنةٌ ولا نَوْمٌ » « يُطعِمُ ولا يُطعَم » ، لا يستوحش من وَحْدَةٍ ولا يَأنَسُ بشىء ، وهو الغنى

---

(١) المنتظم ج ١٦٥ ب .

(٢) على أن ما حدث فى أيام المأمون من أمر المحنة ، وإصدار الكتب بعضها تلو البعض فى العقيدة التى يجب أن يحمل الناس عليها ، هو أيضاً اعتقاد رسمى أصدره الخليفة ، وهو أول اعتقاد . (المترجم)

عن كل شيء ، لا تُخلِقُه الدهورُ والأزمانُ ، وكيف تغيّرُه الدهورُ وهو خالقُ الدهور والأزمان ، والليل والنهار ، والضوء والظلمة ، والسموات والأرض ، وما فيها من أنواع الخلق ، والبر والبحر وما فيهما ، وكل شيء حي أو موات أو جماد ؟ كان ربُّنا وحده لا شيء معه ، ولا مكان يحويه ، فخلق كلَّ شيء بقُدْرَتِه ، وخلق العرشَ لا لحاجته إليه ، فاستوى عليه كيف شاء وأراد ، لا استقرار راحةٍ ، كما يستريح الخَلْق ؛ وهو مدبِّر السموات والأرضين ومدبر ما فيها ومن في البر والبحر ، لا مدبر غيره ، ولا حافظ سواه ، يرزقهم ويُمرِضُهم ويعافيهم ويميتهم ويحييهم ؛ والخلق كلهم عاجزون ، الملائكة والنبيون والمرسلون والخلق كلهم أجمعون ، وهو القادر بقدرةٍ ، والعالم بعلم أزليّ غير مُستَفادٍ ، وهو السميع بسمع ، والمُبْصِرُ ببَصَر ، يَعْرِفُ صِفَتَهما من نفسه لا يبلغ كُنْهَهُما أحدٌ من خلقه ، متكلمٌ بكلام ، لا بآلة مخلوقة كآلة المخلوقين ، لا يوصَف إلاّ بما وصف به نفسَه أو وصفه به نبيُّه عليه السلام ؛ وكلُّ صفة وصفَ بها نفسَه أو وصفَه بها رسوله فهي صفةٌ حقيقية لا مجازية ؛ ويَعْلم أن كلام الله تعالى غير مخلوق ، تكلم به تكليما ، وأنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم على لسان جبريل بعد ما سمعه جبريل منه ، فتلاه جبريل على محمد ، وتلاه محمد على أصحابه ، وتلاه أصحابه على الأمة ، ولم يَصِرْ بتلاوة المتلوّين مخلوقاً ، لأنه ذلك الكلام بعينه الذي تكلم الله به ، فهو غير مخلوق فبكل حال متلوًّا ومحفوظاً ومكتوباً ومسموعاً ؛ ومن قال إنه مخلوق على حال من الأحوال فهو كافرٌ ، حلالُ الدم بعد الاستتابة منه ؛ ويعلم أن الإيمان قولٌ وعملٌ ونيّةٌ : قولٌ باللسان ، وعملٌ بالأركان والجوارح ، وتصديقٌ به ، يزيد وينقص ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، وهو ذو أجزاء ، فأرفع أجزائه لا إله إلا الله ، وأدناها

إماطة الأذى عن الطريق ؛ والحياء شُعْبَةٌ من الإيمان ، والصبرُ من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ؛ والإنسان لا يدرى كيف هو مكتوب عند الله ، ولا بماذا يُختَمُ له ، فلذلك نقول إنه مؤمن إن شاء الله ، ونرجو أن نكون مؤمناً ، ولا يضرُّه الاستثناء والرجا ، ولا يكون بهما شاكاً ولا مُرتاباً ، لأنه يريد بذلك ما هو مغيَّبٌ عنه من أمر آخرته وخاتمته ؛ وكلُّ شيء يُتَقَرَّبُ به إلى الله تعالى ويُعمل الخالص وجهه من أنواع الطاعات فرائضها وسنتِها ونوافلها فهو كلّه من الإيمان منسوب إليه ، ولا يكون الإيمان نهاية أبداً ، لأنه لا نهاية للفضائل ولا للتنوع في الفرائض أبداً .

ويجب أن نُحِبَّ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلَّهم ، ونعلم أنهم خيرُ الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن خَيْرَهم كلَّهم وأفضلَهم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق ، ثم عمر بن الخطاب ، ثم عثمان بن عفان ، ثم علي بن أبي طالب ، رضي الله عنهم ، ونشهدُ للعشرة بالجنة ، ونترحَّم على أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ومن سبَّ عائشة فلا حظ له في الإسلام ، ولا نقول في معاوية إلا خيراً ، ولا ندخل في شيء شَجَر بينهم ، ونترحَّم على جماعتهم ، قال الله تعالى : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون : ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ، ربنا إنك رءوف رحيم[1] » ، وقال فيهم « ونزعنا ما في صدورهم من غِلٍّ ، إخواناً على سُرُر متقابلين[2] » ولا يكفِّر بترك شيء من الفرائض غير الصلاة المكتوبة وحدها ، فإنه من تركها من غير عذر وهو صحيح فارغ ، حتى يخرج وقت الأخرى فهو كافر ، وإن لم يجحدها ، لقول

---

(١) سورة الحشر ، آية ١٠ .

(٢) سورة الحجر ، آية ٤٧ .

النبي صلى الله عليه وسلم : بين العبد والكفر ترك الصلاة ؛ فمن تركها فقد كفر ، ولا يزال كافرا حتى يندم ويعيدها ، فإن مات قبل أن يعيد لم يصل عليه وحشر مع فرعون وهامان وقارون وأبي بن خلف . وسائر الأعمال لا يكفر بتركها ، وإن كان يفسق حتى يجحدها ؛ ثم قال : هذا قول أهل السنة والجماعة الذى من تمسك به كان على الحق المبين ، وعلى منهاج الدين والطريق الواضح ورجي به النجاة من النار ودخول الجنة إن شاء الله ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : الدين النصيحة ، قيل : لمن يارسول الله ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ؛ وقال عليه السلام : أيما عبد جاءته موعظة من الله تعالى فى دينه فإنها نعمة من الله سيقت إليه ، فإن قبلها بشكر ، وإلا كانت حجة عليه من الله تعالى ليزداد بها إثما ويزداد بها من الله سخطا ، جعلنا الله لآلائه شاكرين ولنعمائه ذاكرين وبالسنة معتصمين ، وغفر لنا ولجميع المسلمين[1] » .

وكان تسامح المسلمين فى حياتهم مع اليهود والنصارى ؛ وهو التسامح الذى لم يسمع بمثله فى العصور الوسطى سبباً فى أن لحق بمباحث علم الكلام شيء لم يكن قط من مظاهر العصور الوسطى ، وهو علم مقارنة الملل ؛ ولم تكن نشأة هذا العلم من جانب المتكلمين ؛ ذلك أن النوبختى ، وهو مؤلف أول كتاب له شأن فى الآراء والديانات ، كان من نقلة كتب اليونان إلى لسان العرب[2] . وكذلك ألف المسعودى كتابين فى الديانات[3] . ولم يكن المسعودى متكلما ؛ ثم جاء المسبحى

---

(١) المنتظم ص ١٩٥ ب — ١٩٦ ا .

(٢) الفهرست ص ١٧٧ ، مروج الذهب ج ١ ص ١٥٦ .

(٣) مروج الذهب ج ١ ص ٢٠٠ — ٢٠١ .

المتوفى عام ٤٢٠ هـ — ١٠٢٩ م ، وكان ممن اشتغل فى الدواوين ، ومن مؤلفاته كتابُ دُرَّة البغية فى وصف الأديان والعبادات ، وهو كتاب مطول على طريقة المسبِّحى ، ويقع فى ثلاثة آلاف وخمسمائة ورقة ؛ وإذن فقد عنى هذا المؤلف الأديب العالم بالبحث فى الأديان إلى جانب اشتغاله بأمور الدولة ؛ وهذا الكتاب هو الكتاب الوحيد الذى يتصل بعلوم الدين من بين كتب المسبِّحى ؛ ومرجع عنايته بذلك إلى أن أسرته من حرّان ، ولذلك عنى بما كان يعنى به الصابئة[1] .

ثم أقبل على البحث فى الملل بعضُ المتكلمين الميالين إلى معرفة ما غاب عنهم ، فمن ذلك كتاب المِلل والنِّحل ، (وقد صار هذا الاسم شائعاً بين المؤلفين فى هذا الباب) لأبى منصور البغدادى المتوفى عام ٤٢٩ هـ — ١٠٣٨[2] ؛ ثم جاء ابن حزم الأندلسى المتوفى عام ٤٥٦ هـ — ١٠٦٤ م فألف كتاب الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، ورد فيه على مختلف المذاهب متحمساً فى ذلك الدفاع عن الإسلام ، وفى أوائل القرن الخامس الهجرى ألف أبو الريحان البيرونى المتوفى عام ٤٤٠ هـ — ١٠٤٨ م كتابه المسمَّى « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة » ، وجعله كتابَ حكاية لمذاهب الهند على وجهها لا كتاب حجاج وجدل ، ولذلك لم يناقض الخصوم ، ولم يتحرج من حكاية كلامهم ، وإنْ بانَ الحقُّ[3] ، فكان هذا الكتاب كتاب بحث علمى نزيه ؛ ومما ينبغى أن نلاحظه أن عقيدة مؤرخى النِّحل كانت فى الغالب موضعاً لشكوك الشاكين وطعنهم ؛

---

(١) المغرب لابن سعيد ص ٩٦ وما بعدها .

(٢) طبقات السبكى ج ٣ ص ٢٣٩ .

(٣) كتاب الهند للبيرونى طبعة سخاو ص ٤ .

وقد نقل ياقوت[١] عن صاحب تاريخ خوارزم ما اتهم به الشهرستانى[٢] من التخبُّط فى الاعتقاد ، والميل إلى الإلحاد لأنه — فى زعم مؤرخ خوارزم — مع وفور فضله وكمال عقله أعرض عن نور الشريعة واشتغل بظلمات الفلسفة ، ولم يكن فى مجالس وعظه « قال الله » ولا « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم » ولا جوابٌ من المسائل الشرعية[٣] .

---

(١) معجم البلدان ج ٣ ص ٣٤٣ من الطبعة الأوروبية ، وانظر Goldziher, SWA. 73, S. 552.

(٢) المتوفى عام ٥٤٨ هـ وهو صاحب الكتاب المشهور المسمى الملل والنحل .

(٣) وكتاب الشهرستانى المذكور ، أعنى كتاب الملل والنحل ، خير ما يذكر فى باب علم مقارنة الملل وتاريخها وأصولها عند المسلمين . (المترجم)